تأثير المقهى في أدب

نجيب محفوظ

نجد المقهى يلعب دوراً كبيراً في روايات محفوظ الذي يقول : «كان جلوسي في الفيشاوي يوحي لي بالتفكير» .. وكل نفس شيشة يطلع بمنظر .. كان خيالي يصبح نشيطاً جداً في أثناء تدخين الشيشة .. عرفت المقهى في سن مبكرة منذ دراستي الثانوية .. ومعي أحد أصدقائي .. وكان لنا مقهى في كل «حتة».

أرصفة نجيب محفوظ :

لقد كان محفوظ من اكثر ادباء العالم الذين امضوا وقتا طويلا من اعمارهم جالسين إلي الرصيف، يتأملون ويلاحظون ويرصدون.

ليس مثل الرصيف مكانا للتأمل، الشارع بكل درجاته، دربا كان أو زقاقا أو حارة أو طريقا ما هو إلا ممر للبشر، والانسان محب للنظر، للتأمل بطبعه، في المدينة حيث الرصيف يمثل الحد، الاطار، يجلس البعض فوقه مباشرة لالتقاط الانفاس، للراحة، للتأمل. لتمضية الوقت، والرصيف الإطار المحيط بمسجد وضريح مولانا الحسين، رصيف خاص، يجلس فوق الدراويش والمريدون، يتسامح معهم المجتمع. فيمكن للواحد منهم ان يتمدد نائما فلا يزعجه أحد، ويمكن لامرأة تقيم في احد الازقة القريبة ان تخرج عند العصاري لتشم الهواء تجلس فوق الرصيف محتمية بالمسجد، تتحدث إلي غريبة مثلها، أو تفرج عن نفسها ثم تعود من حيث أتت، لعل رصيف الضريح والمشهد الحسيني أول ما عرفه نجيب محفوظ عند بدء ارتياده للعالم انطلاقا من منزله الاول بدرب قرمز. في الدروب والأزقة لاتوجد أرصفة، نهر الطريق متداخل مع حدود البيت.

الرصيف يؤطر حركة السائرين حتي لايتداخلوا مع العربات والدواب، في

الشوارع الرئيسية بالقاهرة القديمة توجد أرصفة ضيقة ومع ظهور المركبات الآلية زاد العرض حتي يتوافر للمشاة مكان للسير، هكذا الأصل في الرصيف كما تعرفه المدينة الحديثة والقديمة، البيوت الكبري، القصور، المساجد لابد أن يحيطها إطار، مرئي محسوس مثل الرصيف، أو غير مرئي وهذا ما ينظمه العرف المتبع، فلا يمكن لشخص ان يتبول بجوار مسجد أو يربط دابته عند أو قرب بابه.

نجيب محفوظ افندي، والافندية لايمكنهم الجلوس مباشرة إلي الرصيف، لذلك وجدوا الحل في المقاهي المطلة علي الميادين والشوارع، المقهي يسمح للانسان بالجلوس في مناطق لايعرفه فيها أحد، وامام المقهي يمتد الرصيف، تتقلص مساحته نهارا لزيادة الحركة في نهر الطريق، وتمتد ليلا مع خلو الشارع نسبيا في جميع الأحوال يمكن للأفندي أن يجلس فوق الرصيف امام المقهي ويتأمل، يتابع.

من الأرصفة التي أمضي نجيب محفوظ أوقاتا طويلة اليها، ارصفة مقاهي الجمالية، خاصة مقهي الفيشاوي الذي كان رصيفه ضيق المساحة بالنسبة إلي عمقه الداخلي، هكذا كان المقهي الذي هدم في عام تسعة وستين من القرن الماضي، كان المدخل يشبه باب بيت كبير، امامه دكة يجلس فوقها الحاج فهمي الفيشاوي بعد أن تقاعد وتخلي عن الفتونة وأصبح يدير المقهي من مقعده هذا. يدخن النرجيلة ويطعم جواده الاصيل بيده، وخلفه يمتد المقهي، هنا يصبح للرصيف الخارجي امتداد داخلي، خاصة ان مقهي الفيشاوي القديم كان فريد التكوين، ممر طويل تتخلله نوافير المياه وعلي الجانبين حجرات صغيرة سدل عليها ستائر من الخرز وقد اختفي هذا النوع من الستائر الذي كان يغطي أيضا دكاكين الحلاقين، وجود الممر الطويل يمكن اعتباره رصيفا داخليا يمتد أمام الحجرات.

إلي أحد المقاعد في هذا الممر كان يجلس نجيب محفوظ. وحيدا في الصباح، خاصة خلال الفترة التي نقلوه فيها إلي قبة الغوري مغضوبا عليه بعد استقالة حكومة الوفد، كان يختلس وقتا ليس بالقصير ليجلس في الفيشاوي بمفرده يؤنسه تدخين النرجيلة ويفكر في الشخصيات التي يعايشها والروايات التي يكتبها.

وقد كانت علاقته بالشيشة ان كل نفس كان يخرج بمنظر من رواية شرع فيها،

انها صديق صافي يؤنس جلوسه وقتا طويلا، اضطر إلي التوقف عن تدخينها لانها بدأت تتحول إلي عادة معطلة، خاصة عندما انتقل للسكني في العباسية، وأصبح يتردد مرات نهارا وليلا علي المقهي لتدخينها، خاصة في الليل، النرجيلة صديق التأمل علي الرصيف، في ميدان الحسين عدة مقاهي، ارصفتها محاذية للميدان مباشرة، منها مقهي افندية الذي مازال يحمل نفس الاسم، ومقهي المجاذيب، كان يتأمل المارة اثناء جلوسه، ومن يقعد امام تلك المقاهي حتي اليوم يمكنه أن يلمح الاصول الانسانية لشخصيات نجيب محفوظ، كما ان قراءة رواياته تساعد علي رؤية الخصوصية الانسانية التي يضيفها المكان. من الارصفة التي لزمها ايضا رصيف ضيق جدا لمقهي ما تزال توجد بقاياه في سوق الحمزاوي، وهذا سوق ضيق متخصص في الأعشاب والعطور، مزدحم، وبه أحد أقدم المحلات المتخصصة في المنسوجات اليدوية والملابس الشعبية، محل 'عوف' الذي كان موضوع أحد البرامج الاذاعية الموسيقية الشهيرة نهاية الاربعينات.

في خضم الزحام يجد الانسان مقهي صغيرا تظلله تكعيبة عنب ماتزال بقاياها ماثلة حتي الآن، مازال عم محمد النوبي أقدم متخصص في العطور يذكر نجيب محفوظ، وجلسته بالمقهي وحيدا، طول صمته وتأمله، ويؤكد عم محمد أنه كان محبا للشاي الأخضر بالنعناع الذي يتقنه رجل أصله مغربي.

من الأرصفة التي لعبت دورا في حياتنا الثقافية، رصيف مقهي ريش طوال الخمسينات وبالتحديد في الستينات عندما بدأ نجيب محفوظ ندوته الاسبوعية في مقهي ريش، كان رصيف المقهي متباعدا علي شارع سليمان باشا (طلعت حرب)، وقتئذ كان من شوارع وسط المدينة الأنيقة، كان رصيفا جميلا لتأمل المارة خاصة الحسناوات منهن واللواتي يبطئن من حركتهن عند المرور امام المقهي ليتحن أطول فرصة ممكنة للجالسين كي يتأملوا ويتمعنوا، تواطؤ خفي، الموازي له في الاحياء الشعبية خروج الفتيات ما بين العصر والمغرب ليسرن متمهلات، متأودات امام المقاهي، لعل ابن الحلال يكون عنده نظر.

اختار نجيب محفوظ مكانا في منتصف رصيف المقهي، لايطل مباشرة علي الطريق، خلفه تماما قطعه مستطيلة من الرخام الابيض مازال صاحب المقهي يحتفظ بها،

ويعتبرها من معالمه، إذ أنها تشير إلي مكان جلوس محفوظ المختار، وعلاقة محفوظ بالمكان مثل علاقته بالزمان، يدخل يوميا في السادسة وينصرف في الثامنة والنصف، ساعته الداخلية لاتخطيء ابدا حتي الآن،

أما المكان فلا يغيره ولايبدله، حوله يتحلق الأدباء، في الستينات كانت المناقشات جادة، وتدفع بالبعض أحيانا إلي دائرة الخطر، لم يكن الأدباء والمثقفون بمفردهم، كان هناك العسس أيضا فوق الرصيف، وهم من نوعين، عسس تم تجنيدهم من المثقفين أنفسهم، أو عسس محترفون احيانا لم يكونوا يبذلون أي جهد لاخفاء انفسهم حتي اذا زاد الأمر عن الحد تتدخل الدولة وتلغي الرصيف، حدث هذا في السبعينات عند تدخل الأمن واضطرت ادارة المقهي إلي اغلاقه يوم الجمعة باعتباره إجازة.

الرصيف ليس للتأمل فقط، لكنه فرصة للقاء، للاجتماع، واللقاء يعني الحوار، والحوارات فيها ما فيها .

يقول جمال الغيطانى : " أستطيع الآن أن أفهم تلك الحملة التي شنتها وسائل الاعلام ضد المقاهي في الستينات واعتبرتها مضيعة للوقت، مبطلة للانتاج، وهنا برزت عبقرية المصريين في المقاومة بالحيلة، فوضع أصحاب المقاهي دواليب للكتب عرضوا فيها كتبا من أي نوع، خاصة كتب هيئة الاستعلامات باعتبار المقاهي مراكز ثقافية.

ودائما كان نجيب محفوظ يجلس اما وحيدا في الصباح يقرأ الصحف ويشرب فنجان ألقهوة، أو محاطا بالمريدين . تعددت الأرصفة والرصيف واحد، من رصيف ريش، إلي رصيف مقهي جميل كان مواجها لسينما راديو ثم اختفي المقهي وتحول إلي محل أحذية إلي رصيف مقهي عرابي الذي كان ملتقي اصدقاء الطفولة.

وجه التطرف طعنة إلي عنق نجيب محفوظ محاولا اغتياله، ومنذ ذلك الحين، بطل عادة المشي فوق الرصيف المحاذي للنهر صباحا، والجلوس إلي أرصفة المقاهي، حتي الرصيف المحاذي للبحر والذي اعتاد المشي في الصيف الباكر فوقه أو التطلع إلي البحر فقد أصبح من ذكريات الماضي.

ويمكن المقارنة مثلا بين حضور المقهى عند نجيب محفوظ أو عند غيره من الروائيين المصريين وروائي مثل عبد الرحمن مجيد الربيعي الروائي العراقي المعروف، فعلى الرغم من أن حضور المقهى لدى الربيعي ليس حضورا مجانيا ، ويحتاج إلى دراسة منفصلة في سياقه ، فإن المقهى المحفوظي تتسع دلالاته ، وتتشابك العلاقات الدلالية فيه لدرجة يمكن من خلالها أن نقرأ تاريخ القاهرة عبر المقهى المحفوظي ، فما بين زقاق المدق ١٩٤٧ ، وقشتمر ١٩٨٨ تتشكل عناصر يمكن الاتكاء عليها في قراءة تاريخ القاهرة في اختزالها لمصر ، ويمكن معاينة أحداث كبرى ووقائع لها أهميتها في التاريخ العربي .

ويمكن بداية طرح واحدة من الملامح الأولية الكاشفة للفارق بين مقهى محفوظ بوصفه النموذج الأمثل للرواية المصرية ، خصوصية المقهى المحفوظي ليكون بمثابة الشخصية الروائية واضحة المعالم والأبعاد ، وليس أدل على ذلك أن محفوظ لم يترك مقهاه دونما علامة فارقة أولية ، نعني الاسم الذي يشكله محفوظ حسب ثلاث طرائق :

مقهى له اسمه الخاص دونما إحالة لما هو خارجه ، فيبدو المقهى متفردا باسمه ، ويكون على الباحث عن مرجعية الاسم أن يبحث في تاريخ المقهى نفسه (كما نجد في : الكرنك ، وقشتمر) .

مقهى ينتمي لصاحبه أو مؤسسه ، أو لشخصية عامة ، يكون تاريخه موازيا لتاريخه، ولكنه يمثل تاريخا ممتدا يتجاوز تاريخ من ينتمي إليه ، حيث يصبح المقهى مكانا يختزل تواريخ من يلتصقون به إلى حين ، فسرعان ما يتجاوز المقهى دلالته الأضيق في علاقته بالأشخاص ، متجاوزا ذلك إلى الدلالة الأوسع بالتصاقه بالتاريخ المتعين للوطن ، والإنسانية مما يدخله في دائرة الآثار التاريخية للإنسان ، يستهل محفوظ زقاق المدق ، مقدما قهوة المعلم كرشة : " تنطق شواهد كثيرة بأن زقاق المدق كان من تحف العهود الغابرة ، وأنه تألق يوما في تاريخ القاهرة المعزية كالكوكب الدري . أي قاهرة أعني ؟ .. الفاطمية ؟ .. المماليك ؟ السلاطين ؟ علم ذلك عند الله وعند علماء الآثار ، ولكنه على أية حال أثر ، وأثر نفيس ، كيف لا وطريقه المبلط بصفائح الحجارة ينحدر مباشرة إلى الصنادقية ، تلك العطفة التاريخية ، وقهوته المعروفة بقهوة كرشة تزدان

جدرانها بتهاويل الأرابيسك ، هذا إلى قدم باد ، وتهدم وتخلخل ، وروائح قوية من طب الزمان القديم الذي صار مع كرور الزمن عطارة اليوم والغد ...! "[١].

كما يؤكد مقهى الزهاوي المنحى نفسه : " في هذا المقهى الذي يحمل اسم أحد الشعراء العراقيين الرواد حيث كان يؤمه مع مريديه وحفظة شعره وهو الشاعر "الزهاوي" الذي بات ذكرى فى ذاكرة الجيل" [٢].

ويعتمد حنا مينة الآلية نفسها في "المصابيح الزرق" ، حيث مقهى الشاروخ دالا على صاحبه ، محيلا إليه[٣].

مقهى يكتسب اسمه بانتمائه لشيء يشير لمعنى من المعاني الجذابة، كما في قهوة الزهرة في رواية "خان الخليلي" ذلك المقهى الذي يمنحه محفوظ خصوصية واضحة ، إذ كان بإمكانه وقد أشار إلى الكثير من المقاهي التي يضمها الحي ، أن يذكر أسماءها أو بعضها ولكنه يشير إلى تعددها دون تحديد : " وقد وجد في الحي من أمثال هذه القهوة عشرات حتى قدر قهوات الحي بمعدل قهوة لكل عشرة من السكان "[٤]، ويأتي "مقهى البرلمان" مؤكدا لهذا الجانب .

يبنى نجيب محفوظ شخصية دالة للمقهى بوصفه مكانا يساهم إلى حد كبير في خلق خصوصية التاريخ المصري ، وما يضمه من أحداث كبرى كان المقهى قادرا على أن يحمل عبء الدلالة عليها ، ورغم المساحات التي يشغلها المقهى في الرواية العربية فإن مساحات وصفها والتعريف بها بوصفها الشخصية الروائية قليلة ، حيث يبدو المقهى خاصا بالنص وليس له علاقة بالواقع أو بما يمكن أن يسمى بالمرجعية الواقعية أو المرجعية التاريخية .

ففي الوقت الذي تعاملت فيه الرواية العربية خارج مصر مع المقهى بوصفه مكانا معروفا تنطبق سماته على مقهى يعرفه المتلقي وهي طريقة تنتهجها كثير من

(١) نجيب محفوظ : زقاق المدق ، مكتبة مصر ، ١٩٧٧ . ص٥
(٢) عبد الرحمن مجيد الربيعى : الوكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ط١ . ١٩٩٤ ص ٢٤
(٣) حنا مينة : المصابيح الزرق . الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة ٢٠٠٢ .
(٤) نجيب محفوظ . خان الخليلى . مكتبة مصر . ص٤٧ .

الروايات العربية في تقديم مقاهيها كما نجد في "المصابيح الزرق" لحنا مينة ، وعلى الرغم من الدور الذي يلعبه المقهى عند عبد الرحمن مجيد الربيعي في روايتيه "الأنهار" و "الوكر" ، فإن المقهى موصوف بأقل درجات الوصف المكاني كما أنه ليس محدد الاسم أحيانا ، وليس ممنوحا خصوصية تميزه عن غيره من المقاهي : "استقبله رفاق المقهى بالترحاب ، كان المقهى صغيرا يحتل ركنا يطل على شارع الرشيد من جهة وعلى الشارع الصغير المؤدي إلى ساحة القشلة من جهة أخرى ، حيث الدوائر الرسمية العديدة والوزارات التي تحتل الأبنية القديمة المشيدة منذ سنوات طويلة"[1].

ففي مقابل هذه الصفات المكثفة المهتمة بإبراز موقع المقهى وعلاقته بما يجاوره من أمكنة دالة فى انتقائها . وهو إذ يبرز هذه الأمكنة بأسمائها وصفاتها الكبيرة فإنه يجعل المقهى ركنا نكرة بين مجموعة من المعارف ، ولا يهتم - في دلالة واضحة - بإظهار سمة مميزة للمقهى ، في مقابل ذلك يأتي وصف المقهى المحفوظي محتلا مساحة كبرى في الرواية المصرية على اختلاف كتابها .

يهتم محفوظ كثيرا بإبراز مقهاه والسمات المميزة له ، يتكشف ذلك عبر مقهى كرشة في "زقاق المدق" ، بداية يحدد اسمه ، ويمنحه الكثير من الصفات المميزة : "مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية عشش الذباب بأسلاكها ، وراح يؤمها السمار ، هي حجرة مربعة الشكل ، في حكم البالية ، ولكنها على عفائها تزدان جدرانها بالأرابيسك ، فليس لها من مطارح المجد إلا تاريخها ، وعدة أرائك تحيط بها ، وعند مداخلها كان يكب عامل على تركيب مذياع نصف عمر بجدارها ، وتفرق نفر قليل بين مقاعدها يدخنون الجوز ويشربون الشاى"[2].

إن المساحة التي منحها محفوظ لمقهاه تجعله يقف منفردا بتقديم مقهى من نوع خاص ، يجعلنا نراه نموذجا غير متكرر فعلى الرغم من المساحة الوصفية الواسعة للمقهى في الرواية بعد نجيب محفوظ ، ومنح بعضهم مساحات واسعة لمقاهيهم .

(١) الوكر ص ٢٢ .
(٢) زقاق المدق ص ٧ .

يبقى لنجيب محفوظ خاصية الحفاظ على قانونه الفني الخاص والمتميز في رسم ملامح "قهوته" ، ذلك القانون الكاشف عن الطرائق التي استنها محفوظ في إبداع "قهوته" ، ومن أهمها :

القهوة والمقهى :

يستخدم اللفظين "قهوة ومقهى" ولكنه لا يمزج بينهما في عمل واحد ، وقد كان لاستخدامه اللفظين بعده التاريخي : في أعماله الأولى قبل الكرنك تقريبا يستخدم "قهوة" والأعمال الأخيرة يستخدم "مقهى" وهي نقطة تحتاج إلى وقفة مدققة ، تثير انتباه الباحث طارحة تساؤلاتها القيمة[1] .

إنسانية المقهى :

للمقهى عند محفوظ شخصية لها ما للشخصية الإنسانية من أبعاد (جسمانية – اجتماعية – نفسية) جعل المقهى عنصراً له فاعليته منفصلاً عن الأمكنة الأخرى ومتصلا به وبالذين ينضافون إليها وتنضاف إليهم من البشر .

في "زقاق المدق" يظهر البعد الحسي للقهوة ممثلا فيما يسبغه محفوظ من صفات حسية تحدد معالم المكان (مربعة – مزينة جدرانها – ازدحامها بالأفراد الكاشف عن اتساع مساحتها) .

كما يتجلى البعد الاجتماعي للقهوة في علاقتها بالزقاق وعلاقة الزقاق بالأمكنة المناظرة له ، تلك العلاقة التي تكشف عن موقع الزقاق ، ومن ثم القهوة جغرافيا بالنسبة للمساحة التي تضم هذه الأمكنة مما يجعل منهما (الزقاق والقهوة) مكانا له ملامحه الجغرافية التي تكون بمثابة الجسم الإنساني المميز لصاحبه عن غيره من بني جنسه .

ويعمد محفوظ إلى إبراز البعد الاجتماعي من خلال الثقافة التي يطرح المكان

(١) قد يعزى الأمر إلى قضية اللغة التى عانى منها نجيب محفوظ فى حديثه عن الثلاثية وظروف ابداعها . انظر جمال الغيطانى . نجيب محفوظ يتذكر . أخبار اليوم ١٩٨٧ .

obeikandl.com

تفاصيلها من خلال جدران المقهى والتاريخ المنطمر في تفاصيله ، وعلى الرغم من العزلة التي يعيشها المكان فإنه يعيش شخصيته الخاصة التي تجعل له محيطه الاجتماعي : "ومع أن هذا الزقاق يكاد يعيش في شبه عزلة عما يحدق به من مسارب الدنيا ، إلا أنه على رغم ذلك يضج بحياته الخاصة ، حياة تتصل في أعماقها بجذور الحياة الشاملة ، وتحتفظ – إلى ذلك – بقدر من أسرار العالم المنطوى"[1].

لقد جعل محفوظ للزقاق والمقهى شخصية واحدة ، ما يتصل بأحدهما يتصل بالآخر .

إنسان المقهى :

فى كل مقهى محفوظي هناك شخصيات إنسانية لصيقة الصلة بالمقهى ، تكاد تمثل عنصرا جغرافيا ، كما يشكل كل منهما علامة على الآخر لا ترى المقهى بدون هذه الشخصيات ، ولا تتعرف على هذه الشخصيات بعيدا عن المقهى ، مما يجعل وجود كل منهما مرتبطا بوجود الآخر ، وعلى الرغم من كم البشر المتعاملين مع المقهى تظل هذه الشخصيات أساسا من أسس الصورة المحفوظية للمقهى ، ونجيب محفوظ لا يفصل المكان (المقهى) بوصفه (الثابت) منعزلاً عن أشخاصه بوصفهم (المتحرك) ، إذ يصبح المكان والرواد كالمنزل الخاص وصاحبه ، يبقى المنزل ويتحرك الإنسان ليعود مهما امتدت مساحة حركته ، كما أنه صورة تكشف عن صاحبها في غيابه .

لقد جعل محفوظ من قهوة كرشة وجها آخر للحياة في الزقاق ، امتدادا لها ، فعندما يصمت الزقاق وتنطفئ أنواره تبدأ حياة القهوة أو تستمر الحياة فيها ، وفي إشارات وصفية دالة يقدم الراوي مكانه : "آذنت الشمس بالمغيب ، والتفت زقاق المدق في غلالة سمراء من شفق الغروب ، زاد من سمرتها عمقا أنه منحصر بين جدران ثلاثة كالمصيدة له باب على الصناديقية ...

سكنت حياة النهار وسرى دبيب حياة المساء .....

(١) زقاق المدق ص ٥ .

كاد المدق يغرق في الصمت ، لولا أن مضت قهوة كرشة ترسل أنوارها من مصابيح كهربائية ...

ساد الظلام الزقاق إلا ما ينبعث من مصابيح القهوة فيرسم على رقعة من الأرض مربعا من نور تتكسر بعض أضلاعه على جدار الوكالة ، ومضت الأنوار الباهتة وراء خصاص نوافذ البيتين تنطفئ واحدا في إثر واحد"[1] .

هنا يتأكد دور قهوة كرشة بوصفها الوجه الآخر لحياة الزقاق ، هي ليل الزقاق أو القلب الذي يحافظ على الحياة ، لا ينام بنوم صاحبه ، وجه ذو حضور مسرحي ، عندما تنطفئ أنوار القاعة تدريجيا تبدأ الحياة على المسرح بأنواره التي لا تكشف مساحة من القاعة أيضاً .

إنها الأنوار التي تنسحب على وجه المشاهدين مباشرة أو تكشف عن دواخلهم بصورة غير مباشرة من خلال الحركة على المسرح ، من حيث هي استبطان للنفس الإنسانية وتجسيد لما يدور فيها ، ولا يقدم نجيب محفوظ أشخاصه للقارئ خارجها وإنما يتعرف المتلقي عليهم تحت أنوار القهوة التي ينجذبون إليها ، لذا فإنه ليس من الغرابة أن يكون من هم خارج المكان في حالة أشبه ما تكون بغياب الوعي أو العزوف عن العالم ، والمكانان اللذان تظل حياتهما راكدة إلى موعد بداية حياة قهوة كرشة لا يستطيعان الصمود أمام سطوة القهوة (دكان عم كامل ، وصالون الحلو) : ومن عادة عم كامل أن يقتعد كرسيا على عتبة دكانه – أو حقه على الأصح – يغط في نومه والمذبة في حجرة لا يصحو إلا إذا ناداه زبون أو داعبه عباس الحلو الحلاق ، هو كتلة بشرية جسيمة...."

ولا يختلف الوجود الإنساني لصاحب المكان الثاني (عباس الحلو) عن صاحبه من حيث الصفات التي تخرجه عن زمرة جماعة قهوة كرشة (ويفوتنا دوره اللاأخلاقي مع حميدة مع نمو الأحداث) .

تكتسب قهوة كرشة بعدها النفسي من مجابهتها العزلة أولا ، والتركيب النفسي

(١) زقاق المدق ص ١٥ ، ٧ ، ٥ .

لأشخاصها غير المنفصلين عنها ثانيا ، ثم من الطاقة النفسية الكامنة في تفاصيل القهوة وأشخاصها ، إنها البعد الذي يتكشف عبر الوقوف عند زاوية الواصف والصفة والموصوف في سياق القهوة وما يضمه من أشخاص وتفاصيل[1] يمكننا رصدها عبر الوقوف عند علاقة الأشخاص بالمقهى .

تلك العلاقة التي أسسها نجيب محفوظ وراحت تتشكل في الرواية المصرية أولا والعربية ثانيا ، عبر أشكال ثلاثة دائمة : تلك العلاقة التي يكون فيها الأشخاص لصيقي الصلة بالمقهى لدرجة لا يمكن الفصل فيها بين الإنسان والمقهى ، ويبدو الإنسان ابنا للمكان ، ومن صنعه ، نتعرف فيها هوية الإنسان عبر هوية المقهى ولا يكون له هوية خارجه ، وهي العلاقة الأكثر ظهورا في أعمال نجيب محفوظ : في خان الخليلي يتعرف أحمد عاكف على عالم الحي عبر المقهى بوصفه بوابة للولوج للحياة :

" ومضى يسلم عليهم واحدًا فواحدًا والمعلم يقدمهم قائلا : سليمان بك عتة مفتش بالتعليم الأولى ، سيد أفندي عارف بالمساحة ، كمال أفندي خليل بالمساحة أيضا ، الأستاذ أحمد راشد المحامي ، المعلم عباس شفة من الأعيان"(٢) وفي "زقاق المدق" تتسع دائرة الشخصيات المنضوية تحت هذه العلاقة لتشمل الزقاق بكامل أفراده ، وفئاته ، وطبقاته ، ويعد " كرشة" أول ملامح المقهى ، وعلامة مكانية دالة :

" على كثب من المدخل تربع على الأريكة رجل في الخمسين يرتدي جلبابا ذا بنيقة موصول بها رباط رقبة مما يلبسه الأفندية ويضع على عينيه المضعضعتين نظارة ذهبية ثمينة! ، وقد خلع قباقبه على الأرض عند موضع قدميه ، وجلس جامدا كالتمثال، صامتا كالأموات لا يتلفت يمنة ولا يسرة ، كأنه في دنيا وحده"(٣)، والعلاقة ذاتها تتشكل في "الكرنك " ، و"قشتمر" .

---

(١) الواصف والموصوف والصفة . مفهوم خاص تضمه دراسة بهذا العنوان تهتم بالوقوف عند النسيج اللغوى وإيحاءاته ودلالاته من خلال دراسة زاوية الواصف (الرائى) والموصوف (المرئى) والموصوف له (المرئى له) والصفة معناها النحوى والسردى . أنظر مصطفى الضبع . الواصف والموصوف . دراسة غير منشورة .

(٢) نجيب محفوظ . خان الخليلى . ص ٤٨ . (٣) زقاق المدق ص ٧ .

وفي هذا الجانب يصبح المقهى مكانا صالحا للعمل المهني (والسياسي كما سنرى لاحقا) " يزداد عدد رواده في مثل هذه الساعة ، وأغلبهم من الموظفين المتقاعدين أو بعض الصحفيين الذين يهيئون موادهم الصحفية قبل أن يسلموها إلى صحفهم لغرض نشرها "[1].

– علاقة تتأرجح بين المؤقتة ، والدائمة : وهي العلاقة التي تبدو عبر الشخصيات التي تتحرك بين فضاءين : البيت أو العمل والمقهى بصورة غير منتظمة ، أو علاقتها بالمقهى تستمر فترة مؤقتة ، وتتضح هذه العلاقة عبر علاقة أصحاب المحال والحرفيين بالمقهى بوصفه المكان الأقرب لعملهم والذي يمثل المقهى لهم وسيلة ترفيه واستكمال مجال العمل ، كما يمثل معظم رواد المقهى شكلا من أشكال هذه العلاقة اعتمادا على أن المقهى يمثل لهم حلقة اجتماعية تنضاف لحلقتي العمل والبيت ، وتكون علاقتهم بالمكان منتظمة في أوقات محددة لا تملأ مساحتها المساحة الزمنية لحياتهم .

" وفي المقهى يمكث طويلا ، وعندما تشير ساعته إلى الواحدة ينهض ويودع أصحابه ليعود إلى البيت ويتناول غداءه ثم ينام قرابة الساعتين يصحو بعدهما ويعود ثانية إلى المقهى ، ويمكث فيه حتى السابعة ، آنذاك يعود إلى البيت ليتناول عشاءه ويكمل سهرته مع التلفزيون "[2].

لقد أصبحت العلاقة قائمة بين الطرفين على أساس توازن بين البيت والمقهى ، حيث يكون بإمكان الشخصيات أن تحدد طبيعة العلاقة وفق طبيعتها ، والمساحة المتاحة من وقتها ، ورغم إنه يمكث طويلا فى المقهى ولكن عند حدود زمنية تتحدد حسب ظروفه هو تنتهي العلاقة ، فإذا ما توقفنا عند الضمير في (ساعته) أمكننا إدراك مدى تحكم الإنسان في إحداث هذا التوازن[3].

– **علاقة مؤقتة** : وفيها تكون العلاقة بالمكان وقتية كما نجد في الحملة الانتخابية للسيد إبراهيم فرحات في "زقاق المدق" الذي يعد غريبا على المكان ، يدخله لقضاء

(٢) الوكر ص ١٣٤ . (٢) الوكر ص ١٤٤ .

(٣) وهو ما كان سيمنحنا دلالة مغايرة إذا ما عاد الضمير فى حالته إلى المقهى مثلاً .

حاجة لا تشكل علاقة لها صيغة الدوام ، وليس بإمكاننا أن نراه ابنا للمكان ، وإنما هو شخصية طارئة على المقهى بوصفه مكان عبور بين فاصلتين زمنيتين ، أو مكاني انتقال ، أو مكان إقامة مؤقتة يجعل من المقهى مرتعا للمتمردين والعاطلين والمضادين للنظام . وهي صورة يلح عليها الربيعي في روايتيه "الأنهار" و "الوكر" :

"هذه المقهى ملتقى الغرباء والمنفيين في بيروت ، كلما حدث انقلاب في بلد عربي يصبح له زبائن جدد"[1] .

وفي "الوكر" : "بدأ الرواد بالتجمع ، موظفون صغار ، طلبة ، متقاعدون ، عاطلون عن العمل ، وأغلبهم يمتلكون صحائف أعمال لدى الشرطة تشير إلى انتمائهم للأحزاب السرية المعروفة في البلد ، وهذا ما يجعل منهم عرضة للاعتقال والتفتيش بين فترة وأخرى ويجد المخبرون السريون مادة دسمة لهم" (٢) .

ويرسم حنا مينة صورة شديدة الثراء – دلاليا – على المكان الذي يضم مقهى الشاروخ ، بحيث يكشف المقهى عن الطبقة الاجتماعية الكائنة في الحي عبر العلاقة بالمقهى بوصفه مكانا للإقامة المؤقتة :

"أما المقهى فقد كان في حقيقته مقمرة وخمارة ، وكان المقامرون فيه هم الشاربون ذاتهم ، فإذا ربح أحدهم ابتاع كأسا رخيصة من عرق التين ذي الرائحة الكحولية الحادة فجرعه دفعة واحدة وعاد إلى اللعب . وفي أنصاف الليالى ، حيث لا يبقى لعب ولا عمل ، يتجمع بعض المدمنين حول الشاروخ ، فيشربون ويكحون ويغنون"[3] .

(١) عبد الرحمن محمد الربيعى . الأنهار ، دار الأقواس للنشر ، ط٤ ، ١٩٩١ ، ص ١٤
(٢) الوكر ص ٢٢ . (٣) المصابيح الزرق ص ٤٢ .